

الوافي في الوفيات

رُسِمَ بالأمر العالي ولا زال يزيد الأولياءَ زَيْنًا وَيَزِينُ الأَكْفَاءَ بِمَنْ إِذَا حَلَّ صَدْرًا
كَانَ عَيْنًا وَيَرْتَجِعُ لِكُلِّ مُسْتَحَقٍّ مَا كَانَ لَهُ فِي ذِمَّةِ الزَّمَانِ دَيْنًا أَنْ يَسْتَقِرَّ الْمَجْلِسُ
العالي الزينيُّ في كذا ؛ لأَنَّه الكاتب الذي دَبَّجَ المَهَارِقَ وَرَقَمَ طَرُوسَهَا فَكَانَ لَهَا
نظراتُ الحَدَقِ وَنِصَارَةُ الحَدَائِقِ وَخَطُّ سَطُورِهَا الَّتِي إِذَا رَمَّ لَهَا غَدَتُ مِنَ الحَسَنِ
كَالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّفَائِقِ وَصَرَ بِهَا أَطْيَارَ المَعَانِي لِأَنَّ دَالَاتِ السُّطُورِ قِيسِيٌّ وَالذُّقُطُ بِنَادِقِ
وَزَانِ آفَاقِهَا بِنُجُومِ أَسْجَاعِهِ فَلَمْ يَصِلْ أَحَدٌ إِلَى دَرَجَاتِ فَصَاحَتِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّقَائِقِ وَأَصْدَرَهَا
فِي الرَّوْحِ وَالرَّوْعِ يُرَجِّسِي الحَيَا مِنْهَا وَتُخْشِي الصَّوَاعِقَ وَأُودِعَهَا نِفَائِسَ إِنْشَائِهِ فَأَثْنَى
عَلَيْهَا أُمَّةَ البَلَاغَةِ وَلَوْ سَكْتُوا أَثْنَتِ حَقَائِبِ الحَقَائِقِ . طَالَمَا كَتَبَ بِالأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ
تَقْلِيدًا وَجَهًّا فِي المَهْمَسَاتِ كَتَبًا مَلَأَتِ البَحْرَ حَرْبًا وَالبِرَّ بَرِيدًا وَوَشَّيَ أُمَّةً صَدْرَتْ
عَنْهَا فَطَارَتْ فِي الآفَاقِ وَلَكِنْ أَوْثَقْتَهَا الأَفْهَامَ تَقْيِيدًا وَعَادَ الآنَ إِلَى الشَّامِ فَنَفَسَ عَنْهَا خِنَاقَ
الوَحْشَةِ بِقَرْبِهِ وَتَلَقَّاهُ بِالرَّحْبِ عِلْمًا بِأَنَّهَا تَغْذِي عَنِ الكِتَابِ بِكُتُبِهِ وَأَحْلَسَتْهُ فِي
رُتْبَةٍ يَسْرُرُ فِيهَا الوَلِيَّ بِسَلْمِهِ وَيَسُوءُ العَدُوَّ بِحَرْبِهِ شَوْقًا إِلَى أُنْسِ أَلِفَاتِهِ مِنْ
لَطْفِهِ وَعَرَفْتَهُ مِنْ عُرْفِهِ فِي نَفْحِ عَرْفِهِ فَطَابَ بِهِ الوَادِيَانِ كِلَاهِمَا وَتَنَافَسَا فِي أَخْذِ حِطِّيهِمَا
مِنْ قُرْبِهِ فَمَا تَسَهَّلَا تَسَاهُ مَاءً . فَهُوَ مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ تَشْفَى البِقَاعَ بِهِمْ وَتُسْعَدُ وَإِذَا قَرَّبُوا
مِنْ مَكَانٍ تَخَطَّاهُمُ السُّوءُ لِلأَبْعَدِ وَإِذَا قَامُوا بِمَهْمٍ كَانُوا بِهِ أَقْعَدَ وَإِذَا بَاشَرُوا المَعَالِي
كَانُوا أَسْعَدَ النَّاسِ وَأَصْعَدَ وَإِذَا كَتَبُوا كَتَبُوا العَدَى لِأَنَّ كَلَامَهُمْ لَمَعَ فَأَبْرَقَ وَطَرَسَهُمْ
قَعَقَعٌ فَأَرَعَدَ . فَلْيَبَاشِرْ ذَلِكَ عَلَى مَا عُوْهُدَ مِنْ أَدْوَاتِهِ الكَامِلَةِ وَكَلِمَاتِهِ الَّتِي تَرَكْتَ مَحَاسِنَ
البَرَايَا بَائِرَةً وَأَزَاهِرَ الخَمَائِلِ خَامِلَةً . وَالوَصَايَا الَّتِي تُمَلَى كَثِيرَةٌ وَكَمْ شَرَّعَ لَهَا
قَرطَاسُهُ وَشَرَعَهَا بِأَقْلَامِهِ وَنَضَّدَ عَقُودَهَا بِأَحْكَامِ أَحْكَامِهِ وَمَلَأَ بِجِيُوشِهَا صُدُورَ مَهَامِهِ فَمَا يُلْقَى
إِلَى بَحْرِهِ مِنْهَا دُرٌّ وَلَا يُذْكَرُ لَطُودُ فَضْلِهِ مِنْهَا ذَرٌّ وَلَا يَطْلُعُ القَلَمُ فِي أَفْقِ فَضْلِهِ كَلٌّ
شُمُوسٌ مِنْ ذَلِكَ بِدَرِّهِ وَلَا يُدَلُّ مِثْلُهُ عَلَى صَوَابِ فَقْبِيحِ العَوَانِ أَنْ تُعَلِّمَ الخِمْرَةَ .
وَلَكِنْ لَا يَدُ لِلقَلَمِ مِنْ لَفْتَةٍ جَيِّدَةٍ وَفَلْتَةٍ نَفْثَةٍ تَكُونُ كَالخَالِ فِي الوَجْنَةِ ذَاتِ التَّوْرِيدِ وَهِيَ
الذِّكْرَى بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي مِنْ عَدَمِهَا فَتَدْبَأُ بِخُسْرَانِ مَتِينٍ وَمِنْ لَزْمِهَا فَتَدْبَأُ
بِسُلْطَانِ مَبِينٍ . وَاللَّيْ رَفْعَةُ مَجْدِهِ وَسَعَةُ رَفْدِهِ . وَالخَطُّ الكَرِيمُ أَعْلَاهُ حُجْرَةُ العَمَلِ
بِمَقْتَضَاهُ .

ومولده سنة ثلاث وتسعين وست مائة . وبينني وبينه مكاتبات كثيرة تشتمل على نظم ونثر ولم
يحضرني الآن منها شيء . وذهنه جيد يتوفد ذكاءً وكتابته أصيلة منسوبة وعربيته

جيدة وقد أتقن مصطلح الديوان وحرره فهو الآن من كتاب الزمان . وكتبتُ إليه وهو
بدمشق وأنا بصدد : .
إنَّ عيني مذ غابَ شخصك عنها ... يأمر السُّهُدُ في كراها ويَذْهَبُ .
بدموعٍ كأَنهنَّ الغوادي ... لا تسلُّ ما جرى على الخدِّ منها .
وكتبتُ إليه وهو بغزوة مع غلامٍ حَسَنَ الوجه : .
يا نازحاً صَوَّرَتْهُ في خاطري ... فَرُمْتُ للتصوير بالنَّيرانِ .
إن لم يُبَلِّغْكَ النَّسيمُ تحيَّتي ... فلقد أتاكَ بها قضيبُ البانِ .
وكتبتُ إليه وقد تأخَّرت مكاتباته عنِّي وهو بدمشق : .
يا بارقاً سال في عطف الدُّجى ذهباً ... أذكرتني زمناً في جِلِّقِ ذهباً .
لئن حكيتَ فؤادي في تَلَاهُيهِ ... فلست تحكيه لا وجداً ولا حَرَباً .
ويا نسيماً سرى والليلُ معتكراً ... وَهَبَّ - وهناً إلى أن هزَّني طَرَباً .
أراكَ تنفحُ عِطراً في صَبَاكَ فهل ... تركتَ ذيلاً على جَيرُونَ مُنْذُ حَرَبَا ؟ .
أم قد تحمَّسَّ لَاتَ من صبحي تحيَّتهم ... فكان ذلك في طيب الصَّبا سبباً ؟ .
قومٌ عهدتُ الوفاءَ المحضَ شيمتَهم ... وإن شكَّكتَ سَلِّ العلياء والأدبا .
صرفتُ إِيلاً عِناني عن محبَّتهم ... وبيتٌ نِضواً خليفَ الشوق مكتئباً .
لا الدار تدنو ولا السُّلوان يُنجدني ... وعزَّ ذلك مطلوباً إذا طُلِبَا